﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾

[النحل: 120 - 123]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

شريعةُ الَّذين هادوا، واشتراكُ المشركين معهم، في شبهاتهم حول أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام

يقول الرّازي: "اعْلَم أنَّهُ تَعالى لَمّا زَيَّفَ في هَذِه السّورَةِ مَذاهبَ المُشْرِكينَ في أشْياءَ، مِنْها قولُهُم بإثْباتِ الشُّرَكاءِ والأنْدادِ للّه تعالى، ومنها طَعْنُهُم في نُبوَّةِ الأنْبياءِ والرُّسُلِ عليهم السلام، وقولُهُم: لو أرْسَلَ اللّهُ رَسولًا؛ لَكانَ ذلك الرَّسولُ مِنَ المَلائِكَةِ، ومنها قولُهُم بتحليلِ أشْياءَ حَرَّمَها اللّهُ، وتَحْريمِ أشْياءَ أباحَها اللّهُ تعالى، فلمّا بالَغَ في إبْطالِ مذاهبِهم في هذه الأقْوالِ، وكانَ إبراهيمُ عليه السلام رئيسَ الموحِّدينَ وقُدْوةَ الأُصوليّينَ، وهو الَّذي دعا النّاسَ إلَى التَّوْحيدِ وإبْطالِ الشِّرْكِ وإلى الشَّرائِعِ، والمُشْرِكونَ كانوا مُفْتَخِرينَ به مُعْتَرِفينَ بِحُسْنِ طريقَتِه مُقِرّينَ بِوُجوبِ الاقْتِداءِ به، لا جَرَمَ ذكرَهُ اللّهُ تعالى في آخِرِ هذه السّورةِ، وحكى عنه طريقَتَهُ في التَّوْحيدِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا لِهَؤُلاءِ المُشْرِكينَ على الإقْرارِ بِالتَّوْحيدِ والرُّجوعِ عنِ الشِّرْكِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الهَمزَةُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ، يَتَفَرَّعُ مِنْهُ أرْبَعةُ أبْوابٍ، وهيَ الأصْلُ والمَرْجِعُ والجَماعَةُ والدّينُ، وهَذِه الأرْبَعَةُ مُتَقارِبَةٌ، وبَعْدَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 283.

ذَلِكَ أُصولٌ ثَلاثَةٌ، وهيَ القامَةُ والحينُ والقَصْدُ[1]، وكُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إلَيْه ما سِواهُ مِمّا يَليه، فإنَّ العَرَبَ تُسَمّي ذَلِكَ الشَّيْءَ أُمًّا، ومِنْ ذلك أُمُّ الرَّأْسِ، وهو الدِّماغُ، تَقولُ: أَمَمتُ فُلانًا بِالسَّيْفِ والعَصا أُمًّا: إذا ضَرَبْتَهُ ضَرْبَةً تَصِلُ إلَى الدِّماغِ، والأميمُ: المَأْمومُ، وهيَ أيْضًا الحِجارَةُ الَّتي تُشْدَخُ بِها الرُّؤوسُ[2].

والأُمَّة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما إمّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعها: أمم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾، أي: قائمًا مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة[3].

2) ﴿قَانِتَا﴾: القافُ والنّونُ والتّاءُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على طاعَةٍ وخَيْرٍ في دينٍ، لا يَعْدو هَذا البابَ، والأَصْلُ فيه الطّاعَةُ، يُقالُ: قَنَتَ يَقْنُتُ قُنوتًا، ثُمَّ سُمّيَ كُلُّ اسْتِقامَةٍ في طَريقِ الدّينِ قُنوتًا، وقيلَ لِطولِ القيامِ في الصَّلاةِ: قُنوتٌ، وسُمّيَ السُّكوتُ في الصَّلاةِ والإقْبالُ عَلَيْها قُنوتًا، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238][4]، والمعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّةُ (قنت): احتواءُ باطن الشَّيء على رخاوة متمكّنةٍ فيه لا تفارقه – كحال السّقاء الذي لا يتسرّبُ منه الماء، وبذا يظل رِخوًا، والانقيادُ يكون من لين الباطن وعدم قساوته، ومنه القُنوت: الخشوع والإقرار بالعبودية والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية، ورخاوةُ الباطن نوعٌ من الضّعف يتأتّى منه كلُّ ما فسَّروا به القنوتَ من خضوع، وطاعة، وسكوت حينَ الصلاة، ودعاء، وعبادة، وطولِ قيام للصلاة، ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]، مطيعون وخاضعون، كلٌّ قائم بالشّهادة أنَّه عبدُه، والجمادات قنوتها في ظهور الصّنعة عليها وفيها[5]، والقُنوتُ: لزوم الطّاعة مع الخضوع، وفُسِّر بكلِّ واحد منهما في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238]، وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم: 26] قيل: خاضعون، وقيل: طائعون، وقيل: ساكتون[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمّ).
(2) الخليل، العين: (أمّ).
(3) الراغب، المفردات: (أمّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قنت).
(6) الراغب، المفردات: (قنت).

3) ﴿حَنِيفًا﴾: الحاءُ والنّونُ والفاءُ أَصْلٌ مُسْتَقيمٌ، وهو المَيَلُ، يُقالُ لِلَّذي يَمشي على ظُهورِ قَدَمَيْه: أَحْنَفُ، وقالَ قَوْمٌ - وأراهُ الأَصَحَّ -: إنَّ الحَنَفَ اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلَى داخِلٍ، ورَجُلٌ أَحْنَفُ، أيْ: مائِلُ الرِّجْلَيْنِ، وذَلِكَ يَكونُ بِأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه، ويَتَباعَدَ عَقِباهُ، والحَنيفُ: المائِلُ إلَى الدّينِ المُسْتَقيمِ[1]، والمعنى المحوريُّ للمادَّة: التفات الشّيء أوِ اعوجاجه عن معتاد الحال: ومن الاعوجاج في صورة انحناء الحَنْفاء: القوسُ، والموسى، والسّلحفاة، والحرباء، فكلُّ تلك معوجّة ماديًّا لانحناء هيئتها، ومن معنويّ هذا: الأمّةُ الحنفاء: المتلونة تكسل مرة وتنشط أخرى، ومنَ الالتفات عن معتاد الحال: حَنَف عنِ الشَّيء، وتحنَّف: مال، والحنيف: المسلِمُ الذي يتحنَّف عنِ الأديان الباطلة، أي: يميل عنها إلى الدّين الحقِّ[2]، والحَنَفُ: هو ميل عنِ الضَّلال إلى الاستقامة، والحَنيف هو المائل إلى ذلك، قال ﷻ: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾، وقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67][3].

4) ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾: يقول الخليل: الجَبَى: محفر البئر، والجَبَى: نثيلة البئر، وهي ترابها الذي حولها، تراها من بعيد، تقول: أرى جَبَى بئرٍ، وجَبَى حَوض، والجابيةُ: حوض ضخم واسعٌ تشرب منه الإبلُ في مركو من الأرض، والتَّجبيةُ: ركوعٌ كركوع المُصلي، والتَّجبيةُ: أن يُجبّي الرَّجُل على وجهه باركًا، واجتبى الرَّجلُ الرَّجُلَ؛ إذا قرَّبهُ[4].

والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة يقوم على استخراج بقوة أو كثرة للماء ونحوه إلى حيّز جامع كبير، كجَمع الماء منَ البئر في الجابية ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13]: جمع جابية، ومنه الجِباية: استخراج المال من مظانِّه، جَبَى الخراجَ والمال يجبيه ويَجْباه ويجبوه ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57]، ومن الأصل أُخِذَ الاجتباء: الاصطفاء والاختيار، وأصله أخْذٌ وضمٌّ إلى حيّز، والصيغة تجعله إلى النّفس: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6].

ومنه أيضًا جاء: اجتبى الشّيءَ: جاء به من عند نفسه، أي: تكلَّف استخراجه، والصّيغة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).
(3) الراغب، المفردات: (حنف).
(4) الخليل، العين: (جبي).

تعطي الاجتهاد المتمثِّل في التّكلُّف: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 203][1]، والاجتباء: الجمعُ على طريق الاصطفاء، قال ﷻ: ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 203]، أي: يقولون: هلّا جمعتها، تعريضًا منهم بأنَّك تخترع هذه الآياتِ، وليست من الله، واجتباء الله العبدَ: تخصيصُه إيّاه بفيض إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعٌ من النِّعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ من يقاربهم منَ الصّديقين والشّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][2].

5) ﴿حَسَنَةٞ﴾: الحاءُ والسّينُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرَأةٌ حَسْناءُ وحُسّانَةٌ والمَحاسِنُ مِنَ الإنْسانِ وغَيْرِه: ضِدُّ المُساوئ[3]، والمعنى المحوريُّ لمادَّة (حسن): نَقاءُ الشيء ورقته بخروج الخَشن أو الغليظ الذي يخالطه، فيَشوبُ رِقَّتَه منه، ومن هذا عبَّر التركيب عن الحُسن، أي: جمال المنظر ونقائه ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: 52] نقاؤهن، والمعنويُّ منه ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ۝٧٦﴾ [الرحمن: 76]، ثم عُمِّم في الطَّيب الرقيق من الصُّحبة: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء: 69]، والنِّعمة: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقٗا ۝١١﴾ [الطلاق: 11]، والعمل ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ﴾ [المائدة: 93]، ومن هذا: الحسَنَة ضدُّ السيئة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]، والقول ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83]، والحسنى: التي تَفْضُل سواها في الحُسن، فأُطلِقتْ على الجنة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26][4].

وعند الرّاغب: الحُسْنُ: عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل، ومستحسن من جهة الهوى، ومستحسن من جهة الحسِّ، والحسنةُ يعبَّر عنها عن كلِّ ما يسرُّ من نعمة تنال الإنسانَ في نفسه وبدنه وأحواله، والسيئة تضادُّها، وهما من الألفاظ المشتركة، كالحيوان، الواقع على أنواع مختلفة كالفرس والإنسان وغيرهما[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبي).
(2) الراغب، المفردات: (جبي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).
(5) الراغب، المفردات: (حسن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اتَّصفَ إبراهيمُ ﷺ بصفاتٍ كثيرةٍ، دلَّت بمجموعِها على ردِّ افتراءاتِهم عنه

إنَّ إبراهيم خليلُ اللّه، كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمُّ به أهل الهدى، مطيعًا للّه حنيفًا، مستقيمًا على دين الإسلام، ولم يكُ يُشرك باللّه شيئًا، فيكونَ من أولياء أهل الشِّرك به، وهذا إعلام من اللّه تعالى أهلَ الشِّرك به من قريش أنَّ إبراهيم منهم بريء، وأنَّهم منه برآء، وكان يخلص الشُّكر للّه فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكًا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش، وقد اصطفاه، وأرشده إلى الطَّريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهوديَّة ولا النَّصرانية، وآتينا إبراهيم على قنوته للّه، وشكره له على نعمه، وإخلاصه العبادة له في هذه الدُّنيا ذكرًا حسنًا، وثناءً جميلًا باقيًا على الأيّام، وإنَّه في الدّار الآخرة يوم القيامة، لمَّن صلح أمره وشأنه عند اللّه، وحَسُنت فيها منزلته وكرامته، وقلنا لك يا محمّد: اتَّبع ملَّة إبراهيم الحنيفية المسلمة حَنيفًا مسلمًا على الدّين الذي كان عليه إبراهيم، بريئًا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرَّأ منها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ ترك العطفِ على الآية السّابقة:

انحرافُ المشركين واليهود، عن الحنيفيَّة السَّمحة الَّتي جاء بها إبراهيمُ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ يقول ابن عاشور: هو اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ لِلِانْتِقالِ إلَى غَرَضِ التَّنْويه بِدينِ الإسْلام بِمُناسَبَةِ قَوْلِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾، المَقْصودُ به أنَّهُم كانوا في الجاهليَّةِ، ثُمَّ اتَّبعوا الإسْلامَ، فبَعْدَ أنْ بَشَّرَهُم بِأنَّهُ غَفَرَ لَهُم ما عَمِلوهُ مِنْ قَبْلُ زادَهُم فضْلًا بِبَيانِ فضْلِ الدّينِ الَّذي اتَّبَعوهُ، وجَعَلَ الثَّناءَ على إبْراهيمَ ﷺ مُقَدِّمَةً لِذَلِكَ؛ لِبَيانِ أنَّ فضْلَ الإسْلامِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 316 - 319.

فضْلٌ زائدٌ على جَميعِ الأديانِ بأنَّ مَبْدَأَهُ برَسولٍ ومُنْتَهاهُ برَسولٍ، وهَذا فضْلٌ لَم يَحْظَ به دينٌ آخَرُ.

والأصْلُ الأصيلُ الَّذي تَفَرَّعَ عَنْهُ وعَنْ فُروعِه هَذا الانْتِقالُ ما ذُكِرَ في الآيَةِ قَبْلَها مِنْ تَحْريمِ أهْلِ الجاهليَّةِ على أنْفُسِهم كَثيرًا مِمّا أنْعَمَ اللّهُ به على النّاسِ.

ونَظَّرَهُم باليَهودِ؛ إذْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيْهم أشْياءَ، تَشْديدًا عَلَيْهم، فجاءَ بهَذا الانْتِقالِ لإفادَةِ أنَّ كِلا الفَريقَيْنِ قد حادوا عَنِ الحَنيفيَّةِ الَّتي يَزْعُمونَ أنَّهُم مُتابِعوها، وأنَّ الحَنيفيَّةَ هيَ ماجاءَ به الإسْلامُ مِنْ إباحَةِ ما في الأرْضِ جَميعًا مِنَ الطَّيِّباتِ، إلّا ما بَيَّنَ اللّهُ تَحْريمَهُ في آيَةِ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145][1].

دلالةُ البدء بالمؤكِّدات في الآية:

تناسبُ زخمِ المؤكِّدات مع تزاحمِ الشُّبهات

اُستهلَّت الآية في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بعددٍ من أساليب التَّأكيد منها: ﴿إِنَّ﴾، والجملةُ الاسميَّة والَّتي خبرُها جملةٌ اسميَّة أيضًا، وفيها يتكرَّر ذكرُ المبتدأ الأوَّل وإن كان محذوفًا، وهذا التَّوالي في المؤكِّدات إنَّما جاء لأنَّ هذه الآياتِ قد وصفته بتسع صفاتٍ قد اجتمعت فيه، ورفعت من قدره، وعرَّضت ببعض الشُّبهات الَّتي أُلقيت حوله وحول عصمتِه، فاقتضى الأمر تزاحمَ هذه المؤكِّدات.

نكتةُ حذف اسمِ ﴿كَانَ﴾:

التَّقديرُ في قوله: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، أي: كان هو أُمَّة، فحُذف المسند إليه إيجازًا، لتقدُّم ذكره، ولتسريع ذكر خبره، وهو ﴿أُمَّةً﴾.

بلاغةُ المجاز في الوصف بالأمَّة:

ما قام به إبراهيمُ عليه السلام في حياته، يوازي فعلَ أمَّة من الأمم

ذكر الإمام الرّازي في توجيه وصفِه عليه السلام بأنَّه أمَّة: أنْ تكونَ أُمَّةٌ فُعْلَةً بِمَعْنَى مَفْعولٍ كالرُّحْلَةِ والبُغْيَةِ، فالأُمَّةُ هو الَّذي يُؤْتَمُّ به، ودَليلُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 315.

قولُهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، أو أنَّهُ عليه السلام هو السَّبَبُ الَّذي لِأجْلِه جُعِلَتْ أُمَّتُهُ مُمتازينَ عَمَّنْ سِواهُم بِالتَّوْحيدِ والدّينِ الحَقِّ، ولَمّا جَرَى مَجْرَى السَّبَبِ؛ فيكون وصفُه بالأمَّة إطْلاقًا لِاسْمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ[1] من باب المجاز المرسل بعلاقة (المسبّبيّة)، أو بعلاقة (العموم) حيث أطلق اللّفظ العام، وأراد به خاصًّا، وهو ما يعرفُ عند الأصوليين باللّفظ العامّ المرادِ به خاصٌّ، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 54]، حيث المراد بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: 54] هنا الرّسولُ ﷺ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿أُمَّةً﴾:

مكانةُ إبراهيمَ عليه السلام ليست كغيره

تتنوَّع أغراضُ التَّنكير بحسب تنوُّع المعاني المحتملة للَّفظة، فيمكن أن يفيد تنكيرُ لفظة ﴿أُمَّةً﴾ هنا معانيَ التَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثير على اعتبار أنَّه يوازي العددَ الغفير من النّاس، ويمكن حملُ التَّنكير على النَّوعية على اعتبار أنَّ إبراهيم عليه السلام كان أمَّة غيرَ باقي الأمم.

دلالةُ جملة ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾:

ما أكثرَ الَّذين خرجوا عن ملَّة إبراهيم عليه السلام، مع زعمِهم الانتسابَ له

إيراد ذكره عليه السلام عقيبَ تزييف مذاهبِ المشركين من الشرك والطّعن في النُّبوة، وتحريم ما أحلَّ الله تعالى؛ للإيذان بأنَّ حقيَّةَ دين الإسلام وبطلانَ الشِّرك وفروعه أمرٌ ثابت لا ريب فيه، وفي ذلك أيضًا ردٌّ على قريش واليهودِ حيث يزعمون أنَّهم على دينه[2]، ليَظهر الفرقُ بين حاله عليه السلام وحالِ المشركين وحال اليهود، ففي الجملة تعريضٌ بهم.

دلالةُ البناء الصَّرفيّ لقوله: ﴿قَانِتًا﴾:

صفةُ الطّاعة والامتثال، لم تفارقْ إبراهيمَ عليه السلام

بناءُ قوله: ﴿قَانِتًا﴾ على زنةِ اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 284.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 483.

المصدر المبنيّ للفاعل، لمن وقع منه الفعل، أو تعلَّق به[1]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

دلالةُ لام الجر في لفظ الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام هنا قد تكون للتَّقوية؛ لأنَّ العامل ﴿قَانِتًا﴾ هنا اسم مشتقٌّ عمِلَ عمَلَ الفاعل، وجاء متقدِّمًا والتَّقدير: (للّه قانتًا)[2]، فأفادت لامُ التَّقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقَه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدّى بنفسه دونها، ولا مانعَ من حملها على معنى التَّعليل، والتَّقديرُ: (قانتًا لأجل اللّه).

طاعةُ إبراهيم عليه السلام، كانت خالصةً لله دون سواه

الموقعُ البيانيُّ والنَّحويُّ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

هذه الكلمة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة الثّالثة لإبراهيم عليه السلام، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطفَ بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعت البلاغة إلى ذلك.

ميلُ نبيِّ الله إبراهيمَ عليه السلام، كان للحقِّ، وليس عنِ الحقِّ

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا ثالثًا لـ﴿كَانَ﴾، أو حالًا من ضمير ﴿قَانِتًا﴾[3].

البناءُ الصَّرفيُّ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

بُني قولُه: ﴿حَنِيفًا﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من المصدر المبنيِّ للفاعل، لمن وقع منه الفعلُ، أو تعلَّق به[4]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

إبراهيمُ عليه السلام كان دائمَ الميل عنِ الباطل للحقِّ

فائدةُ عطف قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ﴾:

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الظّاهرُ في الواو أنّها هنا عاطفةٌ،

إبراهيمُ عليه السلام كان يدعو للوَحدانيَّة، ويحاربُ الشِّرك وأهله

(1) الحملاويّ، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 316.
(3) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 7/ 301.
(4) الحملاويّ، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.

عطفت الصِّفةَ الرّابعة لإبراهيم ﷺ على الصِّفات السّابقة، ويكون سببُ مجيئها معطوفة بالواو دون ما تقدَّمها من إنزال التَّغاير العنوانيِّ منزلةَ التَّغاير الذّاتيِّ، بمعنى الإشادةِ بهذه الصِّفة دون غيرها لفضلها، فهي قد نفت عنه الشِّرك، لذلك عُطفت بالواو للإشارة إلى مغايرتها لما سبقها، ويمكن أن يكون سببُ عطفها على قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أنَّه يوجد نوع من التَّقابل بين قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلًا، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأنَّ مُفاد الأخيرة أنَّه مسلمٌ، فيحسن عندئذٍ العطفُ بين الصِّفات المتقابلة، كقوله: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التّوبة: 112]، وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التّحريم: 5]، ويمكن حمل الواو على معنى الحاليَّة على معنى: كان حنيفًا، والحال أنَّه لم يكن من المشركين.

نكتةُ نفيِ الشِّرك عن إبراهيم ﷺ:

نفيُ تهمةِ الشِّرك عن إبراهيم ﷺ بطرقٍ متنوِّعة

المتبادرُ إلى الذِّهن أنَّ قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ يدلُّ على ميله عنِ الباطل إلى الحقِّ، ثمَّ يأتي عطف قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عليه من باب التَّأكيد، وتقرير الصِّفة؛ لأنَّه داخلٌ في معناه، لكن يبدو أنَّ سبب عطفِها عليها أنَّ وصفَه بالحنيفيَّة يعني: الميْل لغةً، وقد يوهمُ هذا أنَّ ميله عن مذاهب غيره قد يوقعُه في الشِّرك من ناحية أخرى، فيكون قد أتى بهذا الوصف لدحض هذا الظّنِّ، أو لبيان حال ميله عن مذاهبهم، بأنَّه كان فرارًا منَ الشِّرك.

سرُّ معنى الأداةِ (لَم) النّافيةِ:

بيانُ أنَّ إبراهيم لم يتلبَّس سابقًا بالشِّرك، ولن يتلبَّس به مستقبلًا

حرف نفي وجزم وقلب، يقلب الفعلَ المضارع إلى معنى الماضي، ويجزم فعلًا واحدًا، ويمكن أن تدخل الهمزة عليها (ألَم)، يقول ابنُ عاشور: ونُفيَ كَوْنُهُ مِنَ المُشْرِكينَ بِحَرْفِ (لَم)؛ لِأنَّ (لَم) تَقْلِبُ زَمَنَ الفِعْلِ المُضارِعِ إلى الماضي، فتُفيدُ انْتِفاءَ مادَّةِ الفِعْلِ في الزَّمَنِ الماضي، وتُفيدُ تَجَدُّدَ ذَلِكَ المَنْفيِّ الَّذي هو مِنْ خَصائِصِ الفِعْلِ

المُضارِع، فيَحْصُلُ مَعْنَيانِ: انْتِفاءُ مَدْلولِ الفِعْلِ بِمادَّتِه، وتَجَدُّدُ الانْتِفاءِ بِصيغَتِه، فيُفيدُ أنَّ إبْراهيمَ ﷺ لَم يَتَلَبَّسْ بِالإشْراكِ قَطُّ، فإنَّ إبْراهيمَ ﷺ لَم يُشْرِكْ بِاللّه مُنْذُ صارَ مُمَيِّزًا، وأنَّهُ لا يَتَلَبَّسُ بِالإشْراكِ أبَدًا[1].

دلالةُ الموقع النَّحويِّ لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ﴾:

نفيُ تهمةِ الشِّرك عن إبراهيم ﷺ، ولو قيدَ أنملَةٍ

فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه السُّكونُ الظّاهر على النّون الَّتي حُذفت تخفيفًا[2]، والغرض من حذف النّون هنا عند ابن عطيَّة هو كثرةُ الاستعمال[3]، والَّذي يبدو أنَّ سبب الحذف المُفضي إلى التَّخفيف هو أنَّ إبراهيم ﷺ لم يدخل في دائرة الشِّرك، ولو للحظة واحدة، فجاء التَّخفيفُ للدّلالة على نفي كونِه في دائرة الشِّرك ألبتَّة.

نكتةُ حذفِ اسم: ﴿يَكُ﴾، ومعنى ﴿مِنَ﴾:

بيانُ أنَّ الشِّرك خلافُ الحنيفيَّة السَّمحة

حُذِفَ المسندُ إليه، وتقديرُه: هو، ويعود على إبراهيم ﷺ، إيجازًا للعلم به، وتدلُّ ﴿مِنَ﴾ على الابتداء، وهو المعنى الَّذي لم يكن ليفارقَها، ويمكن حمْلها على التَّبعيض على معنى أنَّه لم يكن واحدًا منهم، ولا ضَيْرَ من حملها على البيان على اعتبار أنَّ غيرَ الحنيفيَّة، تشمل الشِّركَ والكفر وأهلَ الكتاب وغيرَهم.

دلالةُ (أل) على الجنس في ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

لم يكنِ الخليلُ منتميًا إلى أيِّ صنفٍ من الشِّرك المنبوذ

الأليقُ بالسّياق هنا حملُها على الجنسيَّة، على اعتبار نفي جنس الشِّرك عنه، فلم يكن منتميًا إلى صنف من صنوف الشِّرك مطلقًا.

نكتةُ فصلِ جملة: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾:

إبراهيمُ ﷺ أنموذجٌ في شُكران النِّعم

هذه الجملة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة الخامسة لإبراهيم ﷺ، ولذلك لم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطف بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعت البلاغةُ إلى ذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 316، 317.
(2) صافي، الجدول في الإعراب: 7/ 411.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 430.

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا خامسًا لـ(كان)، أو حالًا من ضمير ﴿يَكُ﴾[1].

دلالةُ البناءِ الصَّرفيِّ لقوله: ﴿شَاكِرًا﴾:

كان إبراهيمُ عليه السلام دائمَ الشُّكر لربِّه ملازمًا له

بناءُ قوله: ﴿شَاكِرًا﴾ على زنة اسم الفاعل، وهو ما اشْتُقَّ من المصدر المبنيِّ للفاعل، لمن وقع منه الفعلُ، أو تعلق به[2]، وقد يدلُّ في إطلاقاته على الاستمرار والدَّوام، وعلى تمكُّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له.

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لِّأَنْعُمِهِۚ﴾:

شكرُ إبراهيمَ عليه السلام للنِّعم، كان لأجل الله لا لسواه

اللّام هنا قد تكون للتَّقوية؛ لأنَّ العامل ﴿شَاكِرًا﴾ هنا اسم مشتقٌّ عمِل عمَلَ الفاعل، وجاء متقدِّمًا والتَّقدير: (لأنعمه شاكرًا)[3]، فأفادت لام التَّقوية تأكيدَ الحكم وتحقيقَه؛ لأنَّ الاسم المشتقَّ كان يمكن أن يتعدّى بنفسه دونها، ولا مانعَ من حملها على معنى التَّعليل، والتَّقديرُ: (شاكرًا لأجل أنعُم الله).

غرضُ التَّعبير بجمع القلَّةِ ﴿لِّأَنْعُمِهِۚ﴾:

شكرُ النِّعم القليلةِ مُفْضٍ إلى شكر النِّعم الكثيرة من بابٍ أولى

يقول الرّازي: فإنْ قيلَ: لَفْظُ الأَنْعُم جَمعُ قِلَّة، ونِعَمُ الله تَعالَى على إبْراهيمَ عليه السلام كانَتْ كَثيرَةً، فلِمَ قالَ: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾؟ قُلْنا: المُرادُ أنَّهُ كانَ شاكِرًا لِجَميعِ نِعَمِ الله إنْ كانَتْ قَليلَةً، فكَيْفَ الكَثيرَةُ؟[4] فيكون من باب التّنبيه بالأدنى على الأعلى، وفيه حثٌّ للمدعوّين على أن يكونوا كأبيهم إبراهيمَ عليه السلام في شكره لله على قليل النِّعم فضلًا عن كثيرها.

نكتةُ فصل جملة ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾:

هذه الجملة وقعت بيانيًّا موقعَ الصِّفة السّادسة لإبراهيم عليه السلام،

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 7/ 301.
(2) الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 61.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 316.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 284.

ولذلك لم تُعطَفْ على سابقتها لكمال اتِّصالها بها؛ إذ لا عطفَ بين صفاتٍ لموصوفٍ واحدٍ إلّا إذا دعتِ البلاغةُ إلى ذلك.

وأمّا نحويًّا؛ فهي إمّا أن تكون خبرًا سادسًا لـ(كان)، أو حالًا من ضمير ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾[1]، ويمكن أن يكون سببُ فصل الجملة عن سابقتها الاستئنافَ البيانيَّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: ما سببُ فوزه بهذه المحامد[2]؟

اجتباءُ الله تعالى لإبراهيمَ، لتميُّزِه بصفاتٍ فيه أهَّلته لذلك

نكتةُ حذفِ الفاعل في الفعل: ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾:

حُذف فاعلُ الاجتباء إيجازًا للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممّا سبقه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾، وحتّى ينشغلوا بالفعل عن الفاعل.

حذفُ الفاعل غايتُه الانشغالُ بالفعل عنِ الفاعل

غرضُ العُدولِ من الاسميَّة إلى الفعليَّة:

عدل النَّصُّ الحكيم عن قوله: مُجتبًى أو المُجتبى إلى التَّعبير بالفعل الماضي؛ وذلك ليبيِّن أنَّ هذا الاجتباء كان قديمًا ومرادًا، وأنَّ الله تعالى قد هيَّأه منذ القدم لحمل هذه الأمانة.

هيَّأ الله نبيَّه إبراهيمَ عليه السلام، ليكون أصلًا لكلِّ الأنبياء

فائدةُ العطفِ في قوله: ﴿وَهَدَىٰهُ﴾:

الواو هنا عاطفة، عطفت نعمةَ الهداية على الاجتباء، وحسُن العطفُ لاشتراك الجملتَيْن في الفعليَّة والماضويَّة.

جمعُ الاجتباء مع الهداية، قوامُ الشَّخصيَّةِ الإبراهيميَّةِ المصطفاة

نكتةُ حذفِ الفاعل من الفعل ﴿وَهَدَىٰهُ﴾:

حُذف فاعلُ الهداية إيجازًا للعلم به، ولوجود ما يدلُّ عليه ممّا سبقه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾، وحتّى يركِّزوا اهتمامَهم على الفعل نفسِه، ليكون باعثًا لهم على الاهتداء.

التَّركيزُ على الفعل يكون دافعًا للهداية

غرضُ تقديم الاجتباءِ على الهداية:

تقديمُ الاجتباء على الهداية، من تقديم السَّبب على المُسبَّب؛ فالهدايةُ هي ثمرة هذا الاجتباء.

تقديمُ السَّبب على المسبَّب منطقٌ واقعيٌّ مقبولٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 7/ 301.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 317.

نكتةُ تعديةِ الهداية بـ (إلى):

الصِّراطُ المستقيمُ وسيلةٌ توصلُ إلى الجنَّة دارِ السَّلام

قولُه تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ﴿إِلَىٰ﴾ حرفُ جر، ومعناه: انتهاءُ الغاية الزَّمانيَّة والمكانيَّة، والفعل (يهدي) يتعدّى باللّام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ [يونس: 35]، ويتعدّى بإلى، كما في الآية هنا؛ وقد تعدّى هنا بـ ﴿إِلَىٰ﴾، ولم يتعدَّ باللام؛ لتضمُّنه معنى الانتهاء في الهداية، أي: هدى اللّهُ إبراهيمَ هدًى منتهيًا في هدايته إلى صراط مستقيم[1]، وهو طريق الإسلام الَّذي رسمه اللّه له، أو هو طريقة الدَّعوة إليه، أي: "وهَداهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ في الدَّعوة إلى اللّه"[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المهتدي لايزال في طريق الهداية يسعى، ويجتهد، قصدًا للوصول إلى الغاية الكبرى، وهي دخولُ الجنَّة؛ لأنَّ الصراط المستقيم هو وسيلةٌ توصل للغاية الَّتي هي دارُ السَّلام، ولهذا عُدّيَ الفعل بإلى، ولم يتعدَّ باللّام؛ لأنَّ دلالتَها على التعليل، وهذا لا يناسب استعمالَها مع الصِّراط؛ لأنَّه ليس الغايةَ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

أفاد تنكيرُ هذه اللَّفظة هنا: معانيَ التَّعظيم والتَّفخيم.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

الإسلامُ كالطَّريق الموصِلِ الى الغايةِ المطلوبة بدون اعوجاجٍ

في قوله تعالى: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعارةٌ تصريحيةٌ؛ حيث شبَّه البيانُ الإلهيُّ الإسلامَ بالصّراط المستقيم، فحذف المشبَّه: وهو الإسلام، وصرَّح بالمشبّه به: وهو الصِّراط المستقيم، أي: الطريق الذي لا اعوجاجَ فيه، فالصِّراطُ حقيقةٌ في الطَّريق الحسّي استعارةٌ للإسلام، وشبَّه الإسلامَ بالطَّريق الحسّي بجامعِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 112، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 143، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3665.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/ 244.

أنَّ كلًّا موصِلٌ للمقصود، وفي تشبيه الطَّريق الحسّي المدرك بالبصر تصويرٌ للمعنويّ المدرَك بالعقول اعتناءً ومبالغةً في إظهاره.

نكتةُ وصفِ الصِّراط بالاستقامة:

في وصفِ الصِّراط بالاستقامة، تعريضٌ بغيره

كثيرًا ما يصف الحقُّ سبحانه صراطَه بالاستقامة مع أنَّه لا يكون إلّا كذلك؛ وهذا الوصفُ للصِّراط بالاستقامة إنَّما هو للإشادة باستقامة صراط الله دون سُبُلهم الَّتي يسلكونها، وليست هذه الصِّفة مقيَّدةً بمعنى: أنَّ هنالك صراطًا مستقيمًا وصراطًا غير مستقيم، بل للتَّركيز على هذا الوصف الذي لا ينفكُّ عن صراط الله العزيز الحميد، والتَّنبيهِ عليه، وفيه تعريضٌ بسُبُلهم المعوجَّة.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

عطفُ الصِّفات الإيجابيَّة على بعضها، دليلٌ على السُّموِّ والكمال

الواو هنا عاطفة، عطفت الصِّفةَ الثّامنة لإبراهيم عليه السلام، على ما تقدَّمها، والَّذي يحسِّن العطفَ بينها وبين الصِّفتيْن السّابقتيْن لها، اشتراكُهم في الفعليَّة، والماضويَّة.

نكتةُ إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة:

ما يُؤتيه الله تعالى، فهو مددٌ لا يَنضبُ

في إسناد الإيتاء إلى ضمير العظمة، تفخيمٌ لهذا الإيتاء، ورفعٌ لقدره، وأنَّه إيتاءٌ يليقُ بمن أُسند إليه.

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

إظهارُ مكانة إبراهيمَ لتعليل دواعي تفضيله وتميُّزِه

والالتفاتُ إلى التَّكلُّم لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، وتفخيم مكانه عليه السلام، ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، داخلٌ في عِدادهم كائنٌ معهم في الدَّرجات العلا من الجنَّة[1].

دلالةُ التَّعبير بالإيتاء:

الإيتاءُ فيه سهولةٌ وعطاءٌ كبيرٌ

يقول الرّاغبُ: الإتيان: مجيء بسهولة، وكلٌّ موضع ذُكِرَ في وصفِ الكتاب (آتينا)؛ فهو أبلغُ من كلِّ موضع ذكر فيه (أوتوا)؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 484.

لأنَّ (أوتوا) قد يقال: إذا أوتي من لم يكن منه قَبول، وآتيناهم يقال فيمن كان منه قَبولٌ.

والإيتاء: الإعطاء، وخصَّ دفع الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 277][1].

معنى ﴿فِي﴾ و(ال) من قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾:

من رعتْهُ عنايةُ الله في الدُّنيا؛ نـال الأمـانَ، وحاز السَّعادة

ظرفيَّةٌ مجازيَّة، والمعنى: في حياته الأولى على الأرض، حيث شبَّه إحاطةَ الحياة الأولى فيه بإحاطة الغرفة أوِ المكان على من هو فيه، ومعنى (أل) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: عهديَّةٌ ذهنيَّة؛ لأنَّ المراد فيها حياتُه الأولى على الأرض.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾:

ذكـرُ حسنةِ الدُّنيا، مُشوِّقٌ لحسنة الآخرة

قدَّم شبه الجملة الظَّرفيَّة على المفعول الثّاني لـ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، للعناية بظرف الإيتاء ومكانِه قبل بيان نوعه وماهيَّته؛ وللتّشويق، لما سيأتي بعدها من وصف حاله في الآخرة.

غرضُ تنكير لفظ ﴿حَسَنَةً﴾:

أكرمَ الله تعالى إبـراهـيـمَ عليه السلام بـالـعـطـاءات وخصوصًا النُّبوَّة

الحسنة تشمل ما قيل: بأن حبَّبه إلى النّاس حتى إنَّ جميع أهل الأديان يتولَّونه، ويُثنون عليه عليه السلام حسبما سأل بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: 84] وقيل: الحسنة النُّبوَّةُ، وقيل: الأولاد الأبرار على الكِبَر، وقيل: المالُ يصرفه في وجوه الخير والبِرِّ، وقيل: العمرُ الطّويل في السَّعة والطاعة[2]، ولذا فإنَّ حمل التَّنكير على العموم والتَّعظيم أليقُ بهذا المقام.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

خلاصةُ الحياة، مـا يـكـونُ في الآخرة من نجاة

عطفتِ الواوُ هنا الصِّفةَ التّاسعة لإبراهيم عليه السلام، على الصِّفات السّابقة، والَّذي سوَّغ العطفَ بينهما وجودُ التَّقابل بين وصف حاله في الدُّنيا، وحالِه في الآخرة.

(1) الراغب، المفردات: (أتى).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 484.

فائدةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

تزاحمتِ المؤكِّداتُ لتزاحُمِ الشُّبهاتِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مجموعةٌ من أدوات التّوكيد وأساليبه هي: (إنّ، والاسميّة، واللّام المزحلقة الّتي كانت في أصلها لامَ ابتداء، وتقديم شبه الجملة ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وتزاحمُ هذه المؤكِّدات فيه خروجٌ عن الظّاهر دون مقتضى الحال؛ لأنَّ الخطاب كان مع النَّبيِّ ﷺ والفئةِ المؤمنة معه، وهم لا ينكرون هذه الحقيقةَ، ولكنَّ هذا التَّزاحم في المؤكِّدات إنَّما جاء تعريضًا باليهود الَّذين افتروا على إبراهيم عليه السلام ما افتروه، حيث إنَّ الآية الكريمة قد وطَّأت لحديث الآية الَّتي تليها عن أصحاب السَّبت، فبيَّنتِ الآيةُ الكريمة أنَّ إبراهيم عليه السلام في عداد الصّالحين المنزَّهين عن كلِّ نقيصة.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾:

العنايةُ بإبراهيمَ الخليلِ، تأكيدٌ لمقامه عند الجليلِ

قدَّم شبه الجملة الظَّرفيَّة على خبر (إنَّ) اعتناءً بإبراهيم عليه السلام، بأنَّه من الفائزين في الآخرة، وتشويقًا لما يأتي بعدها من الحكم عليه بالصَّلاح.

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لَمِنَ﴾:

تأكيدُ احتسابِ إبراهيمَ عليه السلام في زمرة الصّالحين

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، اللّام هنا هي اللّام المزحلقة، والَّتي تفيد التَّأكيدَ، وقد كانت ملازمةً للمبتدأ (هو)، على أنَّها لامُ الابتداء، فلمّا دخلت (إنّ)؛ انتقلت إلى الخبر؛ لأنَّ لغة العرب تكره تلاصقَ المؤكِّدات.

معنى ﴿لَمِنَ﴾ في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

لحرفِ المعنى هنا دلالةٌ على ما يميِّزُ الموصوفَ الأكرمَ عليه السلام

﴿لَمِنَ﴾ هنا قد تكون ابتدائيَّة، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، بمعنى أنَّ بداية جزائه في الآخرة، تبدأ من الحكم عليه بالصَّلاح، ويمكن حملها على التَّبعيض على معنى أنَّه واحدٌ من إخوانه الأنبياء المشهودِ لهم بالصَّلاح، فضلًا عن كونها بيانيَّةً تمثِّل لبعض الثَّواب الَّذي ينتظره.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الصّالحون مشهودٌ لهم بذلك، والانتماءُ إليهم فلاحٌ

يمكن حمل (أل) هنا على العهد الذِّهنيِّ، على معنى الأنبياء والمشهودِ لهم بالصَّلاح ممَّن تعرفونهم، ويمكن حملُها على الجنس على معنى: هو واحدٌ من جنس الصّالحين.

نكتةُ تغايرِ النَّظم في الآية:

حالُ إبراهيمَ عليه السلام في الآخرة معروفٌ مقرَّرٌ

يُلاحظ أنَّه لمّا وصف السّياقُ حالَ إبراهيم عليه السلام في الدُّنيا، قال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾، ووصفَ حاله في الآخرة بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فلم يقل: (وجعلناه في الآخرة لمن الصّالحين) مثلًا، فقد جاءت الجملة الثّانية على هيئة الاسميَّة الَّتي تفيد التأكيدَ، وازدحمت بمجموعة من المؤكِّدات؛ لأنَّ حالَ فلاحه في الدُّنيا وحفظِ الله له ظاهرٌ للعيان لا يماري فيه أحدٌ، وإنَّما احتاج الأمر تأكيدَ حاله في الآخرة تعريضًا باليهود الذين ستأتي الآياتُ للحديث عنهم بعد هنيهة، فكان هذا التَّغايرُ في النَّظم والأسلوب؛ لبيان أنَّ حاله في الآخرة محقَّقٌ مؤكَّد لا يتغيَّر، ولا يتبدَّلُ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ

بين اللَّفظتيْن طباقُ إيجابٍ، حيث جمعتِ الآيةُ الكريمة بين لفظَيْن متضادَّيْن، بل هما متناقضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، فلا يخلو المرء من أن يكون إمّا في الدُّنيا وإمّا في الآخرة.

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

مكانةُ نبيِّنا ﷺ رفيعةُ القدر؛ لأنَّها من ذات المشكاة

أفاد العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّراخيَ الرُّتبيَّ، يقول الزَّمخشريُّ: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محلّه، والإيذانِ بأنَّ أشرف ما أوتيَ خليلُ الله إبراهيم من الكرامة، وأجلَّ ما أوليَ من النّعمة: اتِّباعُ رسولِ الله ﷺ ملَّته، من قبل أنَّها دلَّت على تباعد هذا النَّعت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 643.

نكتةُ الإسناد في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾:

في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ إسنادٌ لفعل الوحي إلى ضمير الاسم الأحسن؛ لبيان أنَّ الله تعالى هو الَّذي تولّاه، واجتباه للرِّسالة، وفي ذلك ردٌّ على مشركي مكَّة ومن لفَّ لفَّهم الَّذين اتَّهموه بالكذب والافتراء على الله، ثمَّ إنَّ فيها تعريضًا باليهود الَّذين سيأتي الحديثُ عنهم في الآية الآتية، بأنَّ النَّبيَّ ﷺ من نفس الملَّة ونفسِ المشكاة، ولم يكن بِدعًا منَ الرُّسل.

ما جاء به نبيُّنا ﷺ كان وحيًا منَ الله تعالى، كما كان مع إبراهيمَ عليه السلام

معنى ﴿أَنِ﴾ في قوله: ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ﴾:

(أنْ) تفسيريَّةٌ، فسَّرت هنا المراد بالإيحاء، أو مصدريَّةٌ، على معنى: بأن اتّبع ملَّةَ إبراهيم، أي: باتِّباعها، ومنَ المحقِّقين منِ اقتصر على احتمال المصدريَّة[1].

اختيارُ أداةِ التَّفسيرِ لإيضاح المفهومِ المرادِ من الاتِّباع

دلالةُ الأمر باتِّباع الملَّة:

يفيد الأمر ﴿ٱتَّبِعۡ﴾ معنى الوجوب، وقد يدلُّ على الثَّبات والدّوام؛ لأنَّ شأنه ﷺ كذلك، يقول الآلوسي: وفي لفظ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، ثمّ الأمرِ باتباع الملَّة لا اتّباعِ إبراهيم عليه السلام، ما يدلُّ على أنَّه ﷺ ليس بتابع له، بل هو مستقلٌّ بالأخذ عمن أخذ إبراهيمُ عليه السلام عنه[2]، ومَعْنَى اتِّباعِ مُحَمَّدٍ مِلَّةَ إبْراهيمَ الواقعِ في كَثيرٍ مِنْ آياتِ القُرْآنِ أنَّ دينَ الإسْلامِ بُنِيَ على أُصولِ مِلَّةِ إبْراهيمَ، وهيَ أُصولُ الفِطْرَةِ، والتَّوسُّطُ بَيْنَ الشِّدَّةِ واللِّين، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][3].

ملَّةُ الأنبياء من مشكاةٍ واحدةٍ، وإنِ اختلفت شرائعُهم

نكتةُ المجاز في الأمر بالاتِّباع:

يقول ابن عاشور عن الأمر في قوله: ﴿ٱتَّبِعۡ﴾: مَجازٌ مُرْسَلٌ في

الاتِّباعُ دليلٌ على المحبَّة والطّاعة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/ 374.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 485.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 320.

الاقْتِصارِ على الشَّيْءِ ومُلازَمَته دونَ غَيْرِه؛ لِأنَّ ذَلِكَ مِنْ لَوازِمِ مَعْنَى الاتِّباعِ الحَقيقيِّ، وهو المَشْيُ خَلْفَ المُتَّبَعِ[1]، ويمكن أن يكون الأمرُ بالاتِّباع استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة بتشبيه العمل بالدّين بالاتِّباع بجامع الملازمة.

نكتةُ الإضافة في ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

إبراهيمُ عليه السلام شديدُ الحرص والتَّفاني في تنفيذ الأمر الرَّبانيّ

أضافتِ الآيةُ الكريمة المِلَّةَ إلى إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقد تكون هذه الإضافةُ على الحقيقة؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام، هو جدُّ نبيِّنا ﷺ، وهو من سمّانا المسلمين: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحجّ: 78]، وقد تكون على المجاز على اعتبار، أنَّ ملَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ، تشبه ملَّة أبينا إبراهيم، ولا تخالفُها إلّا في الشَّرائع.

نكتةُ الإظهارِ في موضع الإضمار:

في الإظهار في موضع الإضمار، أغراضٌ بيانيَّةٌ كثيرةٌ تناسبُ مواضعَها

عدَلتِ الآيةُ عنِ الإضمار في ذكر نبيِّنا إبراهيم عليه السلام، فلم تقل: (أن اتَّبع ملَّته)، وأظهرت ذكره مرَّة أخرى؛ للثَّناء عليه وتعظيم شأنه عليه السلام، ولبيان أنَّ المِلَّتَيْن إنَّما هما من مشكاة واحدة، ثمَّ للتَّذكير بحنيفيَّته ونفي الشِّرك عنه.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

كان إبراهيمُ عليه السلام، مائلًا عنِ الباطل إلى جانب الحقِّ

﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم، وتأتي الحال منَ المضاف إليه في ثلاث صوَر:

أولًا: أن يكون المضاف جزءًا من المضاف إليه.

ثانيًا: أو كالجزء منه مثل هذه الآية، فـ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم المضاف إليه، والملَّة كبعضه في صحة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ إذ لو قيل: (واتبع إبراهيم)؛ لكان صحيحًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/ 242.

ثالثًا: أن يكون المضاف عاملًا في الحال، كأن يكون مصدرًا أو وصفًا: نحو: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 4]، فـ ﴿جَمِيعًا﴾ [يونس: 4] حالٌ من الكافِ والميم المضاف إليه، و﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: 4]: مصدر ميميٌّ عاملٌ في الحال النَّصبَ(1).

نكتةُ إعادةِ وصفِه بـ ﴿حَنِيفًا﴾:

يقول ابنُ عاشور: "وانْتَصَبَ ﴿حَنِيفًا﴾ على الحالِ مِنْ إبْراهيمَ، فيَكونُ زيادَةَ تَأْكيدٍ لِمُماثِلِه قَبْلَهُ، أوْ حالًا مِنْ ضَميرِ إلَيْكَ، أوْ مِنْ ضَميرِ اتَّبِعْ، أيْ: كُنْ - يا محمد ﷺ - حَنيفًا، كَما كانَ إبْراهيمُ حَنيفًا"(2).

الأمرُ بالائْتِساء بإبراهيمَ الَّذي كان موصوفًا بالحنيفيَّة

فائدةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، هو مِمّا أوْحاهُ اللّهُ إلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، المَحْكيِّ بقَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، وهو عَطْفٌ على ﴿حَنِيفًا﴾ على كِلا الوجْهَيْنِ في صاحِبِ ذَلِكَ الحالِ، فعلى الوجْه الأوَّلِ يَكونُ الحالُ زيادَةَ تَأْكيدٍ لِقَوْلِه قَبْلَهُ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وعلى الوجْهِ الثّاني يَكونُ تَنْزيهًا لِشَريعَةِ الإسْلامِ المُتَّبِعَةِ لِمِلَّةِ إبْراهيمَ مِنْ أنْ يُخالِطَها شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ(3)، فثمرةُ الجمع بين أسلوبَيْ نفي الشِّرك عنه، هو بيان نفيهِ بالكلّيَّة عنه.

تنوَّعت أساليبُ الآيات في نفي الشِّرك عن أبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام

معنى ﴿وَمَا كَانَ﴾ في سياق الآية:

(ما) نافية، وإذا دخلت على ﴿كَانَ﴾؛ أفادت قوَّة النَّفي، ومباعدةَ المنفيِّ؛ لأنَّها مُشعرةٌ بالجحود.

قـوَّةُ النَّفي مقابلةٌ لشدَّةِ الجحود

معنى ﴿مِنَ﴾ في السّياق الكريمِ:

تدلُّ (من) على الابتداء، وهو المعنى الَّذي لم يكن ليفارقها، ويمكن حملُها على التَّبعيض على معنى أنَّه لم يكن واحدًا منهم،

تنوُّعُ معاني حرفِ المعنى يوسِّعُ الدَّلالةَ أكثر

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 318.

ولا ضيْرَ من حملها على البيان على اعتبار أنَّ غيرَ الحنيفيَّة تشملُ الشِّرك والكفر وأهلَ الكتاب وغيرَهم.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

الأليقُ بالسّياق هنا حملُها على الجنسيَّة، على اعتبار نفي جنس الشِّرك عنه؛ فلم يكن منتميًا إلى صنف من صنوف الشِّرك مطلقًا.

كـلُّ أصـنـافِ الشِّرك مذمومةٌ ومشؤومةٌ

فائدةُ تغييرِ النَّظْم في نفي الشِّرك:

نفى القرآنُ الكريم الشِّرك عن إبراهيم ﷺ في الآية السّابقة بالجملة الفعليَّة، وهنا بالجملة الاسميَّة، يقول ابنُ عاشور: فحَصَلَ مِنْ قَوْلِه السّابِقِ: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ومن قَوْلِه هُنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ثَلاثُ فوائِدَ: نَفْيُ الإشْراكِ عَنْ إبْراهيمَ في جَميعِ أزْمِنَةِ الماضي، وتَجَدُّدُ نَفْيِ الإشْراكِ تَجَدُّدًا مُسْتَمِرًّا، وبَراءَتُهُ مِنَ الإشْراكِ بَراءَةً تامَّةً[1].

المـبـالـغـةُ في نـفـي الـشِّـرك عـن إبـراهـيـمَ ﷺ، تـعـريـضٌ بـالـمـشـركـين واليهودِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجنفُ والحنفُ:

تقدَّم أنَّ الحَنَفَ اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلَى داخِلٍ، ورَجُلٌ أحْنَفُ، أيْ: مائِلُ الرِّجْلَيْنِ، وذَلِكَ يَكونُ بِأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْهِ، ويَتَباعَدَ عَقِباهُ، والحَنيفُ: المائِلُ إلى الدّينِ المُسْتَقيمِ[2]، والمعنى المحوريُّ للمادَّة: التفاتُ الشيء أو اعوجاجه عن معتاد الحال، والحنيف: المسلِم الذي يتحنَّف عن الأديان الباطلة، أي: يميل عنها إلى الدّين الحقِّ[3]، والحَنَفُ: هو ميل عن الضَّلال إلى الاستقامة.

الـجـنـفُ ميـلٌ عـنِ الاستقامة، والـحـنـفُ ميلٌ عنِ الباطل

وأمّا الجنف؛ فهو ميلٌ عنِ الاستقامة إلى الضَّلال، يقول ابن فارس: الجيمُ والنّونُ والفاءُ أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَيْلُ، يُقالُ: جَنِفَ؛ إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).

عَدَلَ وجارَ؛ قالَ اللّهُ تَعالَى جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: 182]، ورَجُلٌ أَجْنَفُ إذا كانَ في خَلْقِه مَيْلٌ، ويُقالُ: لا يَكونُ ذَلِكَ إلّا في الطّولِ والانْحِناءِ، ويُقالُ: تَجانَفَ عَنْ كَذا، إذا مالَ[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة: ميل بسبب انخسافٍ، أو نقصٍ في جانب من الشّيء: كما وُصف، ومن هذا الجَنَفُ: الميلُ والجور[2]، وبالتّالي فرغم تقارب حروف الجذريْن إلّا أنّهما من الأضداد.

الاجتباءُ والاصطفاءُ:

الاجتباء هو تهيئةٌ للاصطفاء

الاصطفاءُ: من الجذر اللُّغويّ (صفو)، المعنى المحوريُّ له: خلوُّ الشَّيء من الخشونة والكدر وما إليهما، كما في ملاسة الصَّفا ونقاء ما يُصفّى منَ الكدورة والشّوائب ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 158]، ومن ذلك "أصفاه بكذا: أعطاه الصفوة (النقيَّ الجيد) من الشَّيء ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الإسراء: 40]، والصَّفيُّ فعيل: ما اختاره الرّئيس من المغنم لنفسه (استخلاص أو استحسان)، ثم عُمِّم على الجيِّد المختار، كالناقة الكثيرة الحَمل، والنّاقة الكثيرة اللَّبن، واستصفى الشيء واصطفاه: اختاره كأنَّه أخذه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسِه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوةُ الله من خلقه ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33] وهو ﷺ أكرمُ آل إبراهيم عليهم السلام[3].

والاجتباءُ: من الجذر اللغوي (جبي) أصلٌ واحد يدلُّ على جمع الشيء، يقال: جبيتُ المال، أي: جمعته، وجبيت الماء في الحوض، أي: جمعته، ومنه الجابية: الحوضُ الذي يُجمع فيه الماء[4].

واجتباء الشَّيء: هو افتعالُه وإعداده وتهيئتُه وصنعُه، يقول

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).

الرّاغب: واجتباء الله العبدَ: تخصيصُه إياه بفيض إلهيٍّ يتحصَّل له منه أنواعٌ من النِّعم بلا سعي منَ العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ من يقاربهم من الصّدّيقين والشُّهداء، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][1]، وعلى هذا فالاجتباء هو سابقٌ للاصطفاء وتهيئةٌ له.

السَّبيلُ والطَّريقُ والصِّراطُ:

الصِّراطُ يتَّصفُ بالاستقامة والوضوحِ دون غيره

يقال للطَّريق الواضح: سراط؛ لأنَّه كأنَّه يسترط المارَّة لكثرة سلوكهم[2]، الصِّراط هو الطَّريق المُستَسْهَل أصلُه من سَرَطْتُ الطَّعامَ ابتَلَعتُه، فقيل: سراط تصوُّرًا أنَّه يبتلعه سالكُهُ، أو يبتلعُ سالكَهُ[3]، والصِّراط الطَّريق المُستقيم[4]، والصِّراط طريق عُلمت للسّالك جميعُ معالمه، فهو يعلم جميعَ ما يلقاه أثناء الطَّريق من بدايته الى نهايته، فالله تعالى قد بيَّن دينه ووضَّحه، ولا يخفى شيءٌ على من أراد أن يسلك صراط الله، وجاء الصِّراط في القرآن الكريم في أغلب المواضع منسوبًا إلى الله تعالى، مثل قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: 126]، بينما خصَّ السَّبيلَ للدَّلالة على طريق أهل الضَّلال، إلا في المواضع التي جاءت معه القرينةُ المانعة من ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108].

وأمّا السَّبيل؛ فمنها طريق سالك، ومنها غيرُ ذلك؛ فالسَّبيل منها الطَّريقُ الذي لم يطرقه طارق، أو أنَّ المُخاطَب به لم يسبق له أن سلكه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره، ومنها طريق سابلٌ، ونخلص بأنَّ الصِّراط يدلُّ على الوضوح والاستقامة،

(1) الراغب، المفردات: (جبي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(4) الراغب، المفردات: (صرط).

والسَّبيلُ منها ما هو سالك ومنها غير ذلك، وورد في القرآن الكريم بالإفراد والجمع بخلاف الصِّراط، فلم يأتِ إلّا منفردًا.

أمّا الطريق؛ فيكونُ في الخير والشَّرِّ، ولكنَّ السَّبيل أغلبُ وقوعًا في الخير من الطريق، ولا يكاد اسم الطَّريق يراد به الخيرُ إلّا مقترنًا بوصف، أو إضافةٍ تخلصُه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1].

الدّين والملّة:

المِلَّةُ اسمٌ لجُملة الشَّريعةِ، والدّينُ اسمٌ لما عليه كلُّ واحدٍ من أهلها

فرَّق بينهما أبو هلال العسكريُّ بأنَّ الملَّة اسمٌ لجملة الشريعة، والدّين اسمٌ لما عليه كلُّ واحد من أهلها، ألا ترى أنَّه يقال: فلان حسن الدّين، ولا يقال: حسن الملَّة، وإنَّما يقال: هو من أهل الملَّة، ويقال: لخلاف الذمّيِّ: الملّي، نسبةً إلى جملة الشريعة، فلا يقال له: دينيٌّ، وتقول: ديني دينُ الملائكة، ولا تقول: ملتي ملَّة الملائكة؛ لأنَّ الملَّة اسمٌ للشرائع مع الإقرار بالله.

والدّين ما يذهب إليه الإنسانُ، ويعتقد أنَّه يقرِّبه إلى الله، وإن لم يكن فيه شرائع، مثل دين أهل الشرك؛ وكلُّ ملَّة دينٌ، وليس كلُّ دين ملَّةً، واليهوديَّة ملَّة؛ لأنَّ فيها شرائعَ، وليس الشّرك ملَّة، وإذا أطلق الدّين؛ فهو الطاعة العامة التي يجازى عليها بالثواب[2].

ويضيف الرّاغب: المِلَّة كالدّين، وهو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار الله، والفرق بينها وبين الدّين أنَّ الملَّة لا تضاف إلّا إلى النَّبيِّ ﷺ الذي تسندُ إليه، نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38] ولا تكاد توجد مضافةً إلى الله، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ ﷺ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشَّرائع دون آحادها، فلا يقال: ملَّة الله، ولا يقال:

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 509.

ملَّتي، وملَّة زيد، كما يقال: دين اللّه ودين زيد، ولا يقال: الصّلاة ملَّة اللّه، وأصلُ الملَّة من: أمللت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ [البقرة: 282]، وتقال المِلَّة اعتبارًا بالشّيء الذي شرعه اللّه، والدّين يقال اعتبارًا بمن يقيمُه؛ إذ كان معناه الطّاعة[1].

(1) الراغب، المفردات: (ملل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»